مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد06 / العـــدد: 24 (2022)، ص 227-239

المناهج السياقية في أعمال عبد الملك مرتاض – المنهج التاريخي أنموذجا-

Contextual approaches in the work of Abdul Malik Murtad - the historical method as a model

مفيدة شايب*
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة (الجزائر)
com.gmail@88moufidachaib

تاريخ الاستلام: 2022/04/16 تاريخ القبول: 2022/10/17

الملخص:

يعتبر المنهج التاريخي أحد أهم المناهج السياقية المعتمدة خلال تحليل النصوص، حيث يساعد على جمع الحقائق التاريخية وفحصها وترتيبها وفق قواعد وشروط محددة، ويتناول المقال الحالي المنهج التاريخي عند باحث أدبي جزائري صال وجال بين المناهج على اختلافها في دراساته وهو الناقد عبد الملك مرتاض من خلال تطبيق آرائه النقدية من خلال مجموعة من أعماله.

كلمات مفتاحية: المنهج النقدي.، المنهج التقليدي.، المنهج السياقي.، المنهج التاريخي.

Abstract:

The historical method is considered one of the most important contextual approaches adopted during the analysis of texts, as it helps to collect historical facts, examine them and arrange them according to specific rules and conditions. His critical opinions through a group of his works.

Keywords: the Critical Approach, The Traditional Approach, The Contextual Approach, The Historical Approach.

*مفيدة شايب

1. مقدمة:

إن المنهج النقدي هو المنهج القائم على مجموعة من القواعد والقوانين التي تسنها شخصية تسمى (الناقد) من أجل تحليل النصوص وإزالة الغموض من حولها مع كشف الجيد من الرديء، وهي مجموعة أطر نظرية، وإجراءات عملية تهدف إلى تفكيك وتحليل نص أدبي معين ، وهذه المناهج مختلفة ومتنوعة منها السياقية التقليدية ومنها النصانية الحداثية، ومايهمنا في هذه الورقة البحثية المناهج التقليدية ممثلة في المنهج التاريخي أنموذجا عند ناقد عربي محنك—عبد الملك مرتاض–، فماهو منظور الناقد من هذا المنهج ،وماهي طريقة تطبيقه له من خلال تحليل مجموعة من نصوصه ،وهذا ما نحاول دراسته فيما يأتي .

2. المنهج التاريخي:

1.2 من حيث المفهوم:

يدخل المنهج التاريخي ضمن المناهج السياقية التي تنظر إلى النص من حيث العوامل الخارجية المؤثرة فيه، ويعد من أول المناهج النقدية في العصر الحديث، وذلك لأنه"يرتبط بالتطور الأساسي للفكر الإنساني وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وهذا التطور الذي تمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التاريخي، وهذا الوعي التاريخي هو الذي يمثل السمة الأساسية الفارقة بين العصر الحديث، والعصور القديمة[1]

وقد شكل ظهور الرومانسية في الأدب تحولا جذريا، حيث دعت إلى التحرر من أفكار المدرسة الكلاسيكية، وأقامت الثورة على الأصول والقواعد السائدة آنذاك، ولعل في هذا التحرر دعوة إلى بزوغ الوعي التاريخي"فالرومانسية هي التي بلورت وعي الإنسان بالزمن، وتصوره للتاريخ، ووضوح فكرة التسلسل، والتطور والارتقاء، والقضاء على فكرة الدورات الزمانية، والحركة الانتكاسية للزمن والتاريخ التي كانت تضع العصور الذهبية في الماضي، وتنظر إلى الحاضر باعتباره تحللا وانهيارا، وهذه هي فكرة الكلاسيكية"[2]

فالمنهج التاريخي إذن تبلور داخل المدرسة الرومانسية وانبثق عنها.

الرومانسية – إذن — في الفكر النقدي "هي التي بدأت التوجه إلى التمثيل المنتظم للتاريخ باعتباره حلقة من التطور الدائم، يتم فيها تصور الأدب باعتباره تعبيرا عن الفرد والمجتمع وبالتالي فهو يرتبط بهذه الجدلية التي تعكس علاقة الفرد بالمجتمع، وباعتباره – وهذا هو الأهم – تعبيرا عن الحياة في تدفقها وانهمارها. هذه الثورة (التي جاءت بها الحركة الرومانسية) كانت انعكاسا للتفاعل الحيوي للإبداع الأدبي مع الواقع الاجتماعي الخارجي، بمعنى إحلال منظومة من المثل الاجتماعية والثقافية والأدبية مخالفة للمنظومات السائدة "[3]

ومن الأساسيات الأولى لبروز المنهج التاريخي داخل الساحة النقدية هو التأريخ لحياة الأديب من خلال بيئته، والظروف المحيطة به، وعلى الأساس يعد المنهج التاريخي في النقد" في مقدمة النظريات السياقية التي تهاجم النظريات الأدبية والنقدية التي تسعى للفصل الكامل بين الإبداع الأدبي، والسياق التاريخي والاجتماعي والثقافي والفكري الذي أنجز فيه مثل نظريات الشكلانية، والفن للفن، والنقد الجديد، إذ يرى أصحاب هذا المنهج أنه مهما بلغ الأدب أعلى درجات الجماليات في الإبداع فسوف يظل يحمل بصمات العصر الذي أبدع فيه، والدارية العميقة، والواعية بسمات هذا العصر، ومعطياته لن تضعف على الإطلاق لاستيعاب المتلقي للعمل الأدبي ككيان فني، وجمالي له شخصياته المتميزة (...)"[4]

---

[1]صلاح فضل-في النقد الأدبي.دمشق - منشورات اتحاد الكتاب العرب-2007-ص16.
[2]بسام قطوس- المدخل إلى مناهج النقد المعاصر- الاسكندرية - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-2006-ص42.
[3]صلاح فضل- نفس المرجع -2007-ص17
[4]فيصل الأحمر - دادوة نبيل- الموسوعة الأدبية- (الجزء الأول)-الجزائر -دار المعرفة-2008-ص79.

فأصحاب الاتجاه التاريخي في النقد" ركزا على وصل آثار الآداب بسياقاتها التاريخية، أو الاجتماعية، أو النفسية، كما اعتمدوا في قراءتهم للعمل الأدبي على مبدعه وذلك بتتبع سيرته، وسيرة عصره، فأخذوا يجرون تحليلاتهم على نفسيته، وعقده حتى جعلوا من النص وثيقة تاريخية تدل على زمنها، ونفسية تشرح مغاليق نفس مبدعها "[5]

ومن ثمة فإن المنهج التاريخي يولي أهمية كبرى لما هو خارج النص، وذلك من خلال معرفة جميع سياقاته الخارجية انطلاقا من معرفة سيرة الأديب أو كاتب النص، ومعرفة العصر أو البيئة التي عاش فيها، ومدى تأثيرها على نتاجه الأدبي، أي دراسة النص في ضوء حياة ذلك الأديب وسيرته، والظروف التي أثرت عليه.

ومهما يكن من أمر فإن المنهج أو النقد التاريخي للأدب "جزء من منهج تاريخي عام، يحاول أن يستنتج الوقائع التاريخية العابرة خلال البحث في الآثار الباقية، ومنها النصوص الأدبية باعتبار هذه النصوص وثائق تاريخية يمكن أن تحلل، وتستنبط منها النتائج بطريقة قريبة من المنهج العلمي"[6]

حيث تتكشف هيمنة التاريخ على الأدب كذلك، حين يجد الدارس نفسه يطبق على الأدب "أساليب التاريخ العادية من تمييز الحقب، وتحديد نزعاتها المسيطرة، إظهار تسلسل الوقائع، وضع جدول لكل حقبة أو لكل لون أدبي في فترة معينة، وربط الوقائع الأدبية بحقائق التاريخ الأخرى وباختصار تقديم الأدب في ديمومته و استمراره الحي، وجعلنا نشعر بمؤلفات الماضي القديم أو الحديث كأننا نعيش في زمن ظهورها ، وإن كنا نفهمها أحسن فهم لأننا نعرف ما سيتبعها "[7]

فالمنهج التاريخي هو القائم على تسجيل الحوادث في أمكنة معينة، وأزمنة معينة، فهو يحاول تفسير نشأة الأثر الأدبي بربطه بزمانه ومكانه، إنه المنهج المرتبط بآثار السلف، وما ارتبط بالماضي من أحداث وأفكار ووقائع على اعتبار أن التاريخ هو وثيقة، أو سجل انجازات الإنسان عبر مراحل تكونه المختلفة.

يمكننا حوصلة جميع ما قيل سابقا بتحديد أو استحضار الثلاثية التي جاء بها **تين**، و الذي يعتقد" أن الأديب الذي يعيش داخل إطار منظومة القوانين الطبيعية لا بد أن يخضع لها ، و ينتج ، و يبدع في سياقها المعرفي و التاريخي ، فتطبعه بطابعها ، و لذا فقد رأى أن ثمة ثلاثة عوامل تؤثر في إنتاج الأديب ، وتخضعه لمشيئتها وهي: الجنس، والبيئة والعصر، ويقصد بالجنس العنصر أو (السلالة) المتمثلة في مجموعة الصفات التي يرثها الشخص أو الأديب من أمته فتمنحه خواصها، كأن يكون عربيا أو جرمانيا أو غير ذلك.

ويعني بالبيئة (المكان) الذي يمنع الفرد مجموعة من الخصائص، أو المميزات الجغرافية التي يعيش في ظلها، وتترك بصماتها عليه.

أما العصر فيقصد به (الزمان) وما يحدث فيه من علاقات اجتماعية أو ظروف سياسية، أو حروب أو عوامل ثقافية، ودينية، أو تيارات سياسية. فكل هذه الأحداث تؤثر في صياغة عقل الأديب ووجدانه "[8]

إن المنهج التاريخي يعتمد على "مبدأ الشرح والتفسير متعقبا تطور الظواهر الأدبية من عصر إلى آخر، رابطا الأحداث بالزمن، مقسما الأدب إلى عصور، واصفا كل أدب في إطار علاقته بالصفة الغالبة للعصر، وهو لا يكتفي بالنظر في مؤلف واحد من مؤلف واحد من مؤلفات الأديب، كما أنه يعني بشخصية هذا الأخير، وبتكوينه الثقافي، وبيئته السياسية والاجتماعية"[9] .

---

[5]فيصل الأحمر - دادوة نبيل- الموسوعة الأدبية- (الجزء الأول)-الجزائر -دار المعرفة-2008-ص78

[6]عبد الرحيم الكردي- السرد ومناهج النقد الأدبي.-مكتبة الآداب-2004-ص208.

[7]حبيب مونسي- (د.ت). فلسفة القراءة و إشكاليات المعنى من المعيارية إلى الافتتاح القرائي المتعدد- . دار الغرب للنشر والتوزيع-ص98.

[8]بسام قطوس- المدخل إلى مناهج النقد المعاصر- الاسكندرية - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-2006-ص46

[9]عمار بن زايد- النقد الأدبي الجزائري الحديث- الجزائر -المؤسسة الوطنية للكتاب-1990-ص123.

2.2 أساسيات وشروط المنهج التاريخي:

إن الباحث في المنهج التاريخي لابد له من تتبع خطوات معينة يسير من خلالها من أجل الإيصال الدقيق والصحيح للمعطيات التي يقدمها للمتلقي نوجزها كالآتي:

الابتعاد عن الانفعالات العاطفية:

فعلى الباحث في التاريخ التعامل بموضوعية وحيادية إزاء النصوص المعالجة ، وجعل ميولاته الذاتية، وعواطفه الشخصية خارج نطاق عملية التحليل، لأجل ذلك وجب على المؤرخ "التحلي بصفة الهدوء، والتروي في معالجة الوقائع التاريخية، وتحليلها تحليلا موضوعيا هادئا رزينا، فإن رأيت مؤرخا مندفعا اندفاعا عاطفيا، كثير النعوت للأشياء، فاعلمن أنه شاعر بعيد عن علم التاريخ، ونحن نعترف بأن هناك حوادث عنيفة جدا يعسر أن يلم عليها المؤرخ دون أن تضطرب نفسه اضطرابا مريعا، فإن من الحوادث لما يؤز الجبال، وإن منها لما تجزع له النفوس، ولكن المؤرخ يجب أن يكون قويا هادئا لا ينفعل، ولا يجزع، ولا يضطرب، ولا يعجل، وإنما ينظر إلى الوقائع كلها نظرة رزينة، ثم يحللها تحليلا هادئا، ويحللها تحليلا منطقيا، ليخرج منها بعد ذلك بأحكام موضوعية أقرب ما تكون إلى الحق"[10].

البحث عن الوثائق:

على اعتبار أن التاريخ هو سجل انجازات الإنسان عبر مراحل تطوره المختلفة، وجب على الباحث العودة إلى آثار السلف وإحياء التراث واستنباط كل المعالم والمعلومات لاستخلاص وقائع تاريخية ذات أسس صحيحة، فبانعدام الوثائق تنعدم الحقائق الإنسانية وتزول أمم بأكملها، فالتاريخ "يصنع من وثائق، والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم، والقليل جدا من هذه الأفعال والأفكار هو الذي يترك آثارا محسوسة إن وجدت فنادرا ما تبقى، لأن عارضا بسيطا قد يكفي لزوالها، وكل فكرة أو فعل لا يترك أثرا مباشرا، أو طمست معالمه هو أمر ضاع على التاريخ، كأن لم يكن البتة، وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور متطاولة من ماضي الإنسانية مجهولا أبدا، إذ لا بديل عن الوثائق، وحيث لا وثائق فلا تاريخ "[11]

العلوم المساعدة:

للعلوم المساعدة من الأهمية"مالعادة التفكير المستقيم، إذ لو أخطأنا أثناء العملية النقدية بإساءة التفكير، فإن من الممكن كذلك أن نخطئ بسبب الجهل، ومهنة العالم المحصل، أو المؤرخ تشبه في هذا معظم المهن، فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية التي لا تغني عن المواهب الطبيعية، ولا المنهج"[11]

ولعل المقصود بالعلوم المساعدة – في نظرنا –الأخذ من كل علم بطرف، والإحاطة بأكبر عدد من المعارف في جميع المجالات ومحاولة استحضارها أثناء عملية التحليل ، وبهذا يصبح المؤرخ في المستقبل "مسلحا بالمعارف الإعدادية التي لا يستطيع إغفالها إلا إذا قدر عليه أن يظل عاجزا، أو معرضا لأغلاط مستمرة ، ويصير في أمان من الأخطاء (العديدة في الوقائع) التي مصدرها المعرفة الناقصة بخطوط الوثائق ولغاتها، والجهل بالأبحاث السابقة، والنتائج التي حصلها النقد، لقد صار مالكا للعلم بالمعلوم، وبما يمكن أن يعلم"[12]

نقد المصدر:

---

[10] عبد الملك مرتاض- فنون النثر الأدبي في الجـزائـر(1931-1954)-الجزائر -ديـوان المـطبوعـات الجامعية-1983-ص228.
[11]- عبد الرحمان بدوي- النقد التاريخي .- دار النهضة العربية-ودار الهنا للطباعة-1970-ص33
[12]- عبد الرحمان بدوي- نفس المرجع-1970-ص63.

و يمكن أن نطلق على هذه العملية مرحلة التحري و الكشف عن الحقائق، أين تصبح وظيفة الباحث في التاريخ هنا كوظيفة المتحري داخل الأجهزة الأمنية حيث عليه التعرف على هوية وأصالة الوثيقة والتأكد من مدى صحتها والتساؤل أولا حينما يكون أمام وثيقة ما: "من أين أتت؟ومن مؤلفها؟ وما تاريخها؟ فالوثيقة التي لا يعرف شيء عن مؤلفها، وتاريخها ومكان كتابتها، وبالجملة مصدرها هي وثيقة لا تفيد شيء"[13]

"فنقد المصدر يحمي المؤرخين من الوقوع في أغلاط هائلة، والنتائج التي يصل إليها نتائج بالغة الأهمية، والخدمات التي قدمها باستبعاده الوثائق الزائفة، وكشفه عن المتحولات، والمشوبات كذبا، وتحديده للظروف التي نشأت فيها الوثائق التي شوهها الزمان، وتقريبها من مصادرها"[14] .

هكذا إذن تعد عملية نقد المصدر عملية مهمة يتبعها الباحث داخل العمل التاريخي فهي "صلب المنهج النقدي التاريخي، بل هو النقد بمعناه الرفيع، وهو الذي يراد عند إطلاق مصطلح النقد التاريخي "[15].

الترتيب النقدي للمراجع:

بعد عملية البحث عن الوثائق ، ونقد المصدر، والتسلح بمختلف العلوم المساعدة ، تأتي عملية تركيب تلك المراجع و ترتيبها ، أي التركيب التاريخي للوقائع، وتنظيم الحقائق التاريخية، وبنائها في شكل متناسق متسلسل، لذا وجب عليه تنظيم تلك الآثار المتراكمة فيما بينها ، ذلك أن الأحداث التاريخية تكون في تراكم أمام الباحث، وقد تختلط وتتداخل إذا لم تكن لديه مثل هذه القدرة على التنظيم ، حيث "إن أول من يدرس نقطة في التاريخ مضطر إلى البدء بترتيب مراجعه، وترتيب المواد المحققة قبل استعمالها ترتيبا عقليا، وسهلا في وقت واحد هو جزء يبدو في الظاهر متواضعا جدا، ولكنه في الواقع مهم جدا، من مهنة المؤرخ والذين تعلموا كيف يقومون به، يضمنون لأنفسهم بهذا وحده مزية ظاهرة، فهم يبذلون مجهودا أقل، ويحصلون على نتائج أفضل، أما الآخرون فيبددون أوقاتهم، وجهودهم إذ يحدث أن يختفوا تحت التقيدات، والاقتطافات، والنسخ، والأوراق التي جمعوها في غير نظام، من ذا الذي تحدث عن أولئك الناس المشغولين الذين ينقلون طوال حياتهم أحجارا لا يعرفون أين يضعونها، ويثيرون بهذا أمواجا من الغبار الذي يعشى الأبصار" [16]

تجميع الوقائع:

معنى ذلك " القدرة على بناء الوقائع والأحداث التاريخية من خلال الرابط بين جزئيات هذه الوثائق، وتفسيرها التفسير الصحيح المعتمد على القرائن "[17].

حيث إن "كل بناء تاريخي يجب أن يبدأ بإيجاد المبدأ الذي يمكننا البحث عنه إما في الظروف الخارجية التي جرت فيها الوقائع، أو في الطبيعة الداخلية للوقائع، والترتيب بحسب الظروف الخارجية هو الأسهل، والأبسط لجعل واقعة تاريخية تحدث في لحظة من الزمان، وبقعة من المكان، وعند إنسان، أو جماعة من بني الإنسان، وهذه إطارات ميسورة لتحديد الوقائع، وترتيبها، وهكذا يولد تاريخ عصر، وقطر، وأمة، وإنسان (...) ، والترتيب تبعا لطبيعة الوقائع جرى في عهد متأخر جدا، وببطء، وعلى نحو ناقص، لقد ولد

---

[13] عبد الرحمان بدوي- نفس المرجع -1970-ص85.
[14] عبد الرحمان بدوي- نفس المرجع -1970-ص93
[15] عبد الرحيم الكردي- السرد ومناهج النقد الأدبي.-مكتبة الآداب-2004-ص209
[16] عبد الرحمان بدوي- نفس المرجع -1970-ص209.
[17] عبد الرحيم الكردي-نفس المرجع-2004-ص208

ارج التاريخ في الفروع الخاصة من دراسة بعض أنواع الوقائع الإنسانية:اللغة، الأدب، الفنون، القانون، الاقتصاد السياسي، الدين، التي بدأت بأن كانت توكيدية "dogmatique"، وشيئا فشيئا أصبحت تاريخية ومبدأ هذا الترتيب هو انتخاب وتجميع الوقائع التي ترجع إلى نوع واحد من الأفعال،

فكل واحدة من هذه المجاميع تصبح مادة لفرع خاص من فروع التاريخ وهكذا يأتي مجموع الوقائع، فيرتب في خانة يمكن أن تبنيتها قبليا بدراسة مجموع ألوان النشاط الإنساني"[18].

3. المنهج التاريخي من خلال رؤية الدكتور عبد الملك مرتاض:

لقد ارتأى الناقد أن يستهل رحلته مع النقد، أو المنهج التاريخي من خلال عدة كتب نحددها كالآتي:

1.3 نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925–1954):

ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب (الباب الأول: النهضة الفكرية، الباب الثاني: النهضة الصحافية والأدبية، الباب الثالث: النهضة التاريخية).

ولعل أول ما نود الإشارة إليه هو تحديد الناقد لفترة معينة من تاريخ الجزائر (1925–1954)، حيث يقول : "وإنما تناولت عصرا محددا وعهدا معينا، إذ كانت المنهجية العلمية تفرض علينا بعض ذلك فرضا، والعهد الذي تناولناه لا يتجاوز تسع وعشرين سنة، وهي الفترة التي تفصل ما بين سنتي خمس وعشرين وتسعمائة وألف، وأربع وخمسين وتسعمائة وألف"[19]، ولعله بهذا الصنيع نجده يتوافق مع الثلاثية التي أتى بها (تين) والمتمثلة في العصر، ومعنى ذلك تحديده للفترة أو الزمان، وما حدث فيه من ظروف، وعوامل ساعدت على ظهور النهضة الجزائرية، في جوانبها الفكرية، والصحافية والأدبية والتاريخية.

يضيف مرتاض عن صلابة، وقوة النهضة الجزائرية خلال هذه الفترة قائلا:" وإذا هي نهضة لا من باب التجاوز، أو التسامح في الإطلاق، ولكنها نهضة من باب الحقيقة التاريخية التي لا يتسرب إليها الشك، ولا يسري إليها الارتياب"[20].

بالإضافة إلى تحديده للبيئة أو المكان بقوله: "أما المكان، أو الأمكنة التي نريد أن نتناولها في هذا الفصل فهي كثيرة، وإنما آثرنا أن نبحث في أعظمها شأنا، وأشهرها أثرا ، وهي ثلاثة: "تلمسان– الجزائر– وقسنطينة" [21].

كما نلمح في دراسة الناقد خلوها وبعدها عن الانفعالات العاطفية، وهذه ميزة أخرى تحسب للمؤلف التاريخي، أو من يحرر وقائع تاريخية، يقول مرتاض: "وقد تكون هذه الصورة غامضة، وقد تكون واضحة، وقد تكون غير ذلك، ولكنها صادقة، خالية من التحيز في الحكم والهوى والعاطفة في تقرير الآراء فيها إيمان مني بأن نهضتنا يجب أن يؤرخ لها، وبأن أدبنا يجب أن يثار حوله الجدال، ويساق فيه البحث ثم بما حب شديد مني للبحث الخالص، لمجرد عن كل هدف غير محاولة استكشاف الحقائق التاريخية ورسمها"[22].

والنقطة الأخرى التي نود إثارتها أن كاتب هذه الدراسة الناقد مرتاض كان يعيش خلال تلك الفترة (على اعتبار أنه من مواليد 1935)، لذلك نلمحه أحيانا يعطي براهين شخصية ذاتية عاشها ولامسها في حياته إبان فترة الاستعمار القاهر، ومثال ذلك قضية التلاميذ الذين يدرسون بالمدارس العربية بدل الفرنسية، وكيف يصب عليهم المستعمر أسواط العذاب، وما يلحق بهم من مكروه إذ يقول: "إذ كنت أتحدث عما

---

[18] عبد الرحمان بدوي- نفس المرجع -1970-ص192.
[19] عبد الملك مرتاض- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954. الجزائر -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-1983-ص09
[20] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع 1983--ص11
[21] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع- 1983 -ص39.
[22] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع-1983- -ص15.

شاهدت، ورأيت، ولمست، وجربت، وبلورت، وسمعت، وما بعد المشاهدة من دليل، وما فوق العيان من بيان، ولأهل العلم أن يعدوا هذا الفصل بمثابة تقرير رجل معاصر يسجل فيه ما كان يرى ويسمع"[23] .

ومما لا شك فيه أن الباحث في مجال تأريخ الوقائع لا بد من التسلح بمجموعة من الوثائق، وتجميع عدد من الأحداث التي تعد المادة الأولى، والنواة الرئيسية، إلا أننا نجد مرتاض قد اعترف خلال قيامه بعمله هذا باصطدامه أمام معضلة تتمثل في نقص المصادر، وفي هذا يقول: "وقد كتبت هذه الفصول في جو علمي ضنك، تنقصه المصادر وتعوزه الوثائق الفنية التي من شأنها أن تنير سبيل البحث"[24] (عبد الملك،1983، ص06

ومع الانتهاء من الحديث حول (نهضة الأدب العربي المعاصر)، وللتأكيد على تاريخيته، نقر بأن "هذا البحث جاء من أجل البحث عن الحقائق التاريخية بما فيها الأدب المنثور، والصحافة، والصراع الفكري بين الجزائريين والفرنسيين المستعمرين، والمحاولات التي كتبت حول تاريخنا"[25]

2.3 فن المقامات في الأدب العربي:

يعد هذا الكتاب المرجع الأول، والأساس لكل باحث أراد الاختصاص في مجال فن المقامات – وهو عبارة عن دكتوراه الحلقة الثالثة التي ناقشها في جامعة الجزائر سنة 1970 (بإشراف د. إحسان النص) ولعله أول كتاب من جنسه يظهر على هذا النحو من حيث "إنه يعالج فن المقامات بوجه عام من يوم بزوغه إلى يوم أفوله، بالإضافة إلى البحث في خصائصه الفنية، والخوض فيما اعتوره من تطورات خلال عصور تاريخ الأدب العربي"[26] .

ولعل في هذا إشارة إلى المنهج التاريخي الذي اتبعه عبد الملك مرتاض، حيث لم يهمل أي جزئية صغيرة ولا كبيرة، ولم يتطرق إليها بالتدقيق والتفصيل بخصوص المقامة وتطورها فكان له ذلك، حيث نجده قد تعامل معها مثل التعامل مع الكائن الحي الذي يولد بادئ الأمر، ويخرج للوجود، ثم يتطور شيئا فشيئا مع الزمن بواسطة عوامل مساعدة.

لقد تطرق الناقد أولا إلى تبيان مدلول كلمة (مقامة) من الناحية اللغوية في مختلف المعاجم العربية، ودلالتها في الشعر والنثر، لينتقل إلى أصول فن المقامات بدءا من تطور التسول إلى كدية، أحاديث الجاحظ وابن دريد، مقامات الزهاد... وغيرها) "[27]، مما جعلنا نلتمس من ناقدنا ترتيبا، وتسلسلا زمنيا لهذه المقامات.

هذا ومن الأساسيات المنهجية البارزة في هذا الكتاب أن يتطلع مرتاض إلى قاعدة أساسية في التعامل مع المنهج التاريخي، ألا وهي (نقد المصدر)، ومعنى ذلك أن يتساءل الباحث أولا عن أي وثيقة ما، من أين أتت؟ ومن مؤلفها الأصلي؟ وهذا ما وفق إليه، وذلك في حديث (الكدية للجاحظ) بقوله: "لم يرد هذا الحديث في كتاب من كتب الجاحظ التي وصلتنا، وإنما ورد معزوا في كتاب (المحاسن والمساوئ) ولعله نقل أصلا من كتاب: (حيل للصوص) الضائع، ويبدو أن الفكرة لرجل من المكدين كان يعيش على عهد الجاحظ"[28].

---

[23] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع-1983- -ص38
[24] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1983-ص06
[25] عبد الملك مرتاض- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954. الجزائر -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-1983-ص16
[26] عبد الملك مرتاض- فن المقامات في الأدب العربي. الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طبع بمركب الطباعة بالرغاية-1980 -ص30.
[27] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1980-ص25.
[28] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1980-ص61.

كما نجد الناقد يصحح كل ما تعلق بتطور المقامات في الأدب من أخطاء تاريخية بالدليل الساطع، وهذا ما ترجعه إلى إحاطة ناقدنا بمجمل الظروف المحيطة بالوقائع والأحداث، والتي تعد كذلك من شروط المنهج التاريخي، وذلك ما تجلى عند دراسته لأحاديث ابن دريد (حديث الأميرة القيلية) المتخالف في صحتها: "كل هذه المتناقضات التي عرضناها في شكل حجج، ننفي بها تاريخية هذه الحكاية التي جاء بها (ابن دريد) على أنها شيء تاريخي، جعلتنا نميل إلى أن الحديث لوكان تاريخيا حقا لما اشتمل على كل هذه العناصر المتضاربة التي لا تتلاءم مع الحياة الاجتماعية العربية ولا مع نفسية المرأة السيدة التي تأنف، وتشمخر أن ترسل العجائز ليخطبن لها الرجال، أو ليبحثوا لها عنهم"[29]

نختم الحديث بخصوص هذه المدونة، لنبرز الشخصية العلمية البارزة للناقد في دراسته هذه، والتي تجلت خصوصا في قوله: "ولن نكون متأثرين بالآراء التي قررها الباحثون قبلنا، فإن ذلك ليس من شيم البحث العلمي في شيء، ولذلك سنخضعها كلها لمرآة العقل، ومحك العلم، فنغربلها غربلة منطقية أساسها النصوص، والوثائق التاريخية، وقوامها البراهين العقلية الثابتة"[30] .

3.3 فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931–1954):

هذا العمل تقدم به إلى جامعة محمد الخامس لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الآداب، ولظروف خاصة لم يتم ذلك، بل ناقش أطروحته هذه في جامعة السربون سنة 1983.

بداية، وكما ألفيناه في دراسة سابقة، فإننا نجد الناقد في هذا العمل يحدد الإطار التاريخي للمدونة الأدبية المدروسة بسنتي 1931-1954، وهذه إشارة إلى أساس من أسس المنهج التاريخي المتعلقة بتبيان الفترة أو العصر.وقد تناول الناقد دراسة هذه الفنون عبر أبواب ثلاثة هي:

الباب الأول: الحياة العامة في الجزائر استدعى فصلين اثنين أحدهما لمعالجة الحياة السياسية والاجتماعية، وثانيهما لدراسة الحياة الفكرية والثقافية.

الباب الثاني: فنون النثر الأدبي في الجزائر: قسمه إلى خمسة فصول تناول كل فصل منها على التوالي: (المقالة الأدبية، الفن القصصي، الفن المسرحي، حركة التأليف، فنون أدبية أخرى: الخطابة، المذكرات، السيرة الذاتية، والرسائل).

ليختم بباب ثالث تحت عنوان: الخصائص الفنية للنثر الأدبي في الجزائر.

تناول فيه ثلاثة فصول: الأول تمثل في: المذهب الفني للنثر الأدبي في الجزائر.

والثاني تمثل في: الإطار الفني للمقالة وخصائصها.

والفصل الثالث:البناء الفني في القصة والمسرحية.

في إشارة أولى لهذه الدراسة نجد مرتاض قد ابتعد عن الانطباعية قدر المستطاع عكس الأعمال السابقة التي لمسنا فيها بعضا من الانطباعية، وبهذا يحقق شرط المنهج التاريخي والمتمثل في الابتعاد عن الانفعالات العاطفية، وقد أقر بذلك شخصيا في قوله: "غير أن أحكامنا التي أقمناها وآراءنا التي أصدرناها لم تكن عشوائية أو مرتجلة، وإنما اجتهدنا في أن تكون قائمة على أصول من العلم بهذه الفنون التي درسناها، ولا سيما

---

[29] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1980-ص79.

[30] عبد الملك مرتاض- فن المقامات في الأدب العربي. الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طبع بمركب الطباعة بالرغاية-1980 –ص137.0

في القصة والمسرحية، وقد حاولنا أثناء كل ذلك أن نتخلص من الذاتية ما أمكن، ونتسلح بالموضوعية ما استطعنا، ونتحلى بالمنطق والحذر، والحيطة جهدنا، لئلا تكون أحكامنا هواء، وآراءنا ضربا من الانطباعات الذاتية"[31].

كما نلاحظ على الناقد في هذا العمل أنه تسلح بالعدة اللازمة التي تساعده في دقة التاريخ، وإصدار الأحكام الصحيحة الصائبة، تتمثل هده العدة في البحث عن الوثائق، وتجميع الوقائع والأحداث، حيث يقول: "وقد تنوعت المصادر والوثائق التي عول عليها الباحث في دراسته بين الصحف والمجلات، والنصوص الأدبية، كتب عادية، الرسائل، الجلسات الطويلة المتكررة التي عقدناها مع المثقفين الذين عاصروا هذه الحركة، أو ساهموا فيها ممن لا يبرحون أحياء"[32].

هذا، وللأمانة العلمية التي يتحلى بها الناقد نجده يقر، ويصرح بأن عمله هذا لا يعتبر أول محاولة من نوعها، بل سبقه في ذلك الدكتور عبد الله ركيبي في كتاب: (القصة الجزائرية القصيرة)، ونجده يحدد عدة دواعي دعته إلى خوض القول في الفن القصصي في الجزائر، ويعتبر عمله هذا تكملة صالحة للدراسة الوحيدة التي ظهرت إلى اليوم، حول هذا الفن في الجزائر [33].

إضافة إلى الأمانة العلمية نجده يتحلى بالدقة التاريخية في تحديد التواريخ، وتمثل ذلك في مسرحية (يوغرطة)، والخلط القائم في تحديد تاريخ صدورها، (أي قبل سنة 1954، أو بعدها)، مما دفعه – لكي يخرج من غموض الاحتمال، وظلمات الشك– ومساوئ القيل والقال– للاتصال بالمؤلف نفسه (ماضوي)، ومكاتبته من وهران، فيجيبه كتابة: "إشارة إلى رسالتكم عن تاريخ كتابة (يوغرطة) ، يسرني أن أخبركم أنني انتهيت من كتابتها في سنة 1952"[34].

في ختام هذه المدونة، نجد مرتاض يختم عمله المنهجي التاريخي بملحق (ذيل) يكون جامعا لطائفة من المعلومات الفنية التي اشتمل عليها هذا البحث (فيه إحالة على النصوص والمراجع، والشخصيات التي عالجها وذكر لآثارها).

والحكم الذي نستخلصه بعد هذا التبسيط، أن عبد الملك مرتاض جمع في هذه الدراسة حصيلة معرفية قيمة ومعتبرة تنوعت بين الوثائق المختلفة، الكتب، المجلات، الرسائل، وحتى الاتصالات الشخصية المباشرة، والجلسات العلمية التي تشبه الرواية في العصور القديمة، ليخرج لنا بحثا صادقة أحكامه، أمينة آراءه.

4.3 أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830–1962):

هذا كتاب يقع في جزءين اثنين:جزء أول خصصه لدراسة الشعر(ولا يهمنا هنا بطبيعة الحال)، وجزء ثان خاص بالنثر(يقع ما تعلق منه بالسرد في صميم البحث) .وهو كتاب قسمه إلى سبعة فصول: (الفصل الأول: صورة المقاومة الوطنية في كتاب (المرآة) لـ: حمدان خوجة، الفصل الثاني: صورة المقاومة في أدب المذكرات، الفصل الثالث: صورة المقاومة الوطنية في قصة (فرانسوا والرشيد) لـ الزاهري، الفصل الرابع: صورة المقاومة الوطنية في الكتابات السياسية (حلل فيه مقالة للإبراهيمي، ومقالة لابن باديس، الفصل الخامس: صورة مجازر ثامن مايو في المقالة الأدبية، الفصل السادس: صورة المقاومة الفكرية للاحتلال الفرنسي في الصحافة الوطنية،
الفصل السابع: صورة المقاومة الفكرية للاحتلال الفرنسي في الدوريات الوطنية).

أول ما نستهل به عند حديثنا عن هذا العمل ، هو تحديد الناقد للفترة التاريخية الحقيقية لظهور النثر الفني في الجزائر، والتي ترجع إلى فترة الحرب العالمية: "ونحن حين جئنا نتناول صورة المقاومة الوطنية في الأدب الجزائري الحديث (1830–1962) لم نكد نجد في المرحلة

---

[31] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1983-ص08
[32] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1983-ص09
[33] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1983-ص162
[34] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-1983-ص231.

الأولى من عهد الاستعمار الفرنسي أي دور يذكر للنثر الفني منه، فيما عدا بعض الرسائل المتفرقة المحدودة العدد هنا وهناك ، وكان يجب أن ننتظر إلى أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها لتبدأ الكتابات النثرية الجادة مثل المقالة الصحفية، والمحاولات القصصية، وبعض الخطب التي كانت تلقى في المواقف العامة..."[35].

نركز في هذه الدراسة على أدب المذكرات، والمحاولة القصصية التي قام بها الزاهري في قصة (فرانسوا والرشيد) أما عن أدب المذكرات، ففيه يبدو الناقد متذبذبا في إدراج المذكرات ضمن جنس الأدب، أم أن كتابة المذكرات مما ينتمي إلى التاريخ، فنعدها كتابة تاريخية.

وللأمانة العلمية، التي اعتدناها من ناقدنا، نجده يركز على أن النص الذي يتعامل معه ليس مع الأسف الشديد أصليا، ولكنه مترجم من الفرنسية إلى العربية[36].

كما نجد مرتاض يقر بأن (مذكرات البطل أحمد باي) لتجربة أدبية تاريخية، سياسية، نضالية معا، ويعترف بقيمة هذه المذكرات، ويعدها من الوثائق التاريخية التي لا يمكن الاستغناء عنها بالرغم من انعدام بعض النصوص التي تمجد مقاومة (أحمد باي) باي قسنطينة السياسي، الداهية، نجده يقول: "وأعتقد أن مذكرات أحمد باي تعد مصدرا مركزيا في الكتابات التاريخية التي كتبت عن مدينة الجزائر ذلك بأنه جاء بتفاصيل على الرغم من أنها ناقصة إلا أنها مثيرة، ودقيقة إلى حد ما حول جميع الخطط العسكرية التي تناقش حولها هو شخصيا، وقادة آخرون"[37]

وفي نقطة أخرى، يقدم لنا عرضا للمحاولة القصصية التي قام بها (الزاهري) والتي تحمل عنوان (فرانسوا والرشيد) والتي ظهرت في جريدة (الجزائر) في يوم الاثنين عاشر غشت عام خمسة وعشرين وتسعمائة وألف، وخلاصة فكرة هذه المحاولة القصصية أنها تتناول مسألة المساواة التي كان الفرنسيون يملؤون بها أشداقهم ، ويرفعون بها عقائرهم، فكانوا لا يزالون يزعمون للناس بعامة، وللجزائريين بخاصة، أن فرنسا تشع منها مبادئ المساواة والحرية الإخاء[38] (عبد الملك،2003، ص98).

وقد اعتبر الناقد أن النص من الوجهة الفنية لا ينبغي له أن يرقى إلى مستوى الكتابة القصصية بكل ما يحمل اللفظ من معنى، غير أن الكاتب استطاع أن يسرد فعلا أحداث شخصيتين كانتا تبدوان أول الأمر على وفاق واتفاق، وخصوصا على مساواة تامة بينهما في الحياة السياسية إلى أن تكشفت الحقيقة القاصمة فأفضت إلى موت إحدى الشخصيتين كمدا وحزنا، وهي الشخصية الوطنية جراء التمييز العنصري بين الشابين الصديقين الجزائري والفرنسي[39].

ليختم مرتاض هذه الدراسة بتحليل نص هذه المحاولة القصصية من حيث (بنية اللغة السردية، بناء الحدث، بناء ملامح الشخصيات، بناء الزمن، بناء الحيز).

وعموما فإن الناقد يعتبر عمل السعيد الزاهري في قصة (فرانسوا والرشيد) أول محاولة قصصية في تاريخ الأدب الجزائري الحديث "ولعل هذه الكتابة أن تكون أول نموذج للنثر الفني المقاوم للاستعمار الفرنسي"[40].

5.3 الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور):

---

[35] عبد الملك مرتاض-أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1830-1962)- الجزائر- دار هومة-2003-ص04.
[36] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع -2003-ص52.
[37] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع -2003-ص64
[38] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع -2003-ص98.
[39] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع -2003-ص91.
[40] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع -2003-ص07

يقول عبد الملك مرتاض: "لكيما نتمكن من إثبات أدبية هذا الأدب من وجهة، وتحديد حجمه تقريبيا من وجهة ثانية، وتمكين القارئ من الإفادة من طائفة من نصوصه من وجهة أخراة كان علينا أن ننتهج منهجا تاريخيا في القسم الأول من بحثنا هذا ومنهجا تحليليا في القسم الآخر منه"[41].

بعكس الكتب الأخرى التي تحدثنا فيها عن المنهج التاريخي عند مرتاض، والتي لم يصرح تصريحا مباشرا فيها باستعماله للمنهج التاريخي، نجده في هذا العمل يصرح بخطته المنهجية ويذكر لفظ (المنهج التاريخي) تصريحا لا تلميحا.

وفي هذا يقول: "وقد اقتضت الخطة المنهجية التي سلكناها أن يشتمل القسم الأول الذي هو أدنى إلى الدراسة التاريخية منه إلى التحليل، ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأدب الجزائري القديم: عوامل النشأة.

الفصل الثاني: الشعر (أنواعه، وتشكيله على عهد الرسميين).

والذي يهمنا من هذه الفصول في هذا المقام تحديدا، الفصل الثالث المتعلق بـ: شعرية النثر في الجزائر على عهد الرستميين.

أول تحليل لنا يكمن في تبيان أن الناقد تعامل مع مصادر مختلفة تنير له طريقه، حيث يقول: "ونود أن نتوقف لدى بعض المصادر التي عولنا عليها في كتابة هذا البحث منها: (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)لابن عذارى المراكشي ، (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان)، (معجم البلدان) لياقوت الحموي..."[42] .

وتفرد كتاب (الأزهار الرياضية) بذكر نصوص الرسائل الخمس، وبعض الخطب الجمعية التي اتخذنا منها مادة لمدارسنا في الفصل الذي عقدناه للنثر الأدبي على عهد الرستميين في عملنا هذا ونعترف بأنه لولا هذا المصدر لما استطعنا أن نكتب شيئا ذا بال على عهد الرستميين في الجزائر"[43].

لكن، وبالرغم من توفر هذه المصادر، نلاحظ الناقد في عمله هذا قد عانى كثيرا من قلتها، حيث يعترف بذلك قائلا: "ولعل من مشاق البحث في الأدب الجزائري القديم، أن يأتي في الطليعة ندرة المصادر وضحالة المادة التي تشتمل عليها، حين توجد من وجهة، وتكرار كثير منها، عبر مراجع كثيرة دون زيادة، أو تفرد يذكران من وجهة أخراة"[44]، يضيف: "وأمام هذا الفراغ التاريخي المحزن لا نملك إلا أن نفرغ إلى فرض الفروض"[45].

ويعود بنا مرتاض مرة أخرى حين نجيء إلى الحديث عن النثر الأدبي على عهد الدولة الرستمية في الجزائر، وهو العهد الذي يمتد تقريبا من منتصف القرن الثاني إلى نهاية الثالث للهجرة (160هـ – 296هـ) كما يحكم ويقر على أن أول حركة أدبية عربية في الجزائر على وجه الإطلاق تأسست من خلال الدولة الرستمية "إننا لا نصادق، حسب ما انتهى إليه علمنا، أدبا عربيا يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف قبل ظهور هذه الدولة في الجزائر..."[46].

---

[41] عبد الملك مرتاض- الأدب الجزائري القديم- دراسة في الجذور-الجزائر- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع-2005-ص13.
[42] عبد الملك مرتاض- الأدب الجزائري القديم- دراسة في الجذور-الجزائر- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع-2005-ص18.
[43] عبد الملك مرتاض-نفس المرجع2005-ص23.
[44] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع 2005-ص13.
[45] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع2005-ص16.
[46] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-2005-ص87.

وفي تحليله لأدب هذه الفترة، ألقى الضوء على جنسين أدبيين هما (الرسائل، والخطب)، وقد أحصى لنا عددا من أسماء الخطباء التي بلغته، والتي يعرف منها (نظرا لموسوعة المعرفية الضخمة)، مثلا: "ابن أبي إدريس، وأحمد التيه، وأبا العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور".

أما عن الرسائل، فنجده يعود إلى ما جمعه (الباروني) والذي "لاحظ أن الباروني نفسه، كان اشتكى من ندرة النصوص التي وصلته" [47]، ومهما يكن من أمر، فإن مرتاض اتخذ من أفكار الباروني وثيقة أساسية اعتمد عليها في توثيق معلوماته، حيث "جمع لنا الباروني أطرافا صالحة من هذه النصوص الرسائلية التي تنتمي في معظمها إلى أميرين اثنين هما: أفلح بن عبد الوهاب، ويستأثر بأربع رسائل، وابنه محمد بن أفلح الذي يستبد برسالة واحدة، فتلك إذن خمسة نصوص تتوزع على زهاء ثلاث عشرة صفحة من القطع المتوسط"[48] .

وعموما، فإن هذه الرسائل، تتناول في مجملها موضوع الوعظ، والترغيب، والترهيب، والتذكير بأيام الله.

4. خاتمة:

مما يمكن استخلاصه :

على الصعيد المنهجي ، نلاحظ أن الناقد قد طبق المنهج التاريخي السياقي فيما يقارب 05 كتب (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر – فن المقامات في الأدب العربي – فنون النثر الأدبي في الجزائر – أدب المقاومة الوطنية في الجزائر – الأدب الجزائري القديم)، ولكن برغم إلمام الناقد بمختلف المناهج و التيارات الغربية، فإنه لا يتعامل مع هذه المناهج تعاملا آليا، فيطبقها بحذافيرها ، إنما يصوغها وفقا لما تقتضيه طبيعة النصوص العربية المدروسة ، ويطعمها بثقافة عربية تراثية.

[47] عبد الملك مرتاض- نفس المرجع-2005-ص82.
[48] عبد الملك مرتاض- الأدب الجزائري القديم- دراسة في الجذور-الجزائر- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع-2005-ص85.